بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد : فقد استرعى انتباهى إلى الكتابة فى هذا الموضوع ما لاحظته من تعارض فى أفكار الغزالى وتضارب فى آرائه .

كذهابه مثلاً فى كتاب « معارج القدس » [ إلى أن صفات البارى كلها اعتبارات وإضافات ، وسلوب ، وليست زائدة على الذات . ولا توجب كثرة فى الذات »] (١) .

وفى كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » إلى : « أن الصفات السبعة — يعنى صفات المعانى — ليست هى الذات . بل هى زائدة على الذات » (٢) .

فأردت أن أتبين سر هذا التضارب بين أفكار الغزالى من ناحية ، وأن أتبين أى الرأيين المتعارضين هو الحقيقة فى نظره من ناحية أخرى .

وقد رأيت من الوسائل الضرورية لفهم هذا التضارب أن أتتبع الأدوار التى تقلب فيها الغزالى والعوامل التى ساعدت على تكوينه ، فاقتضانى ذلك أن أعقد فصلا أخصصه لدراسة حياة الغزالى أستوضح فيه شخصه ما أمكن ذلك .

ورأيت أن مما يساعد على هذا الاستيضاح دراسة الحال العلمية والسياسية إبان عصره . أعنى فى القرن الخامس الهجرى . فجعلتها فصلا آخر اتخذته مقدمة لدراسة شخصه .

ورأيت من الوسائل الضرورية أيضاً دراسة كتبه دراسة وافية ، فعقدت لهذه الدراسة فصلا سجلت فيه ملاحظاتى على هذه الكتب .

---

(١) ص ١٧ طبعة الكردى .

(٢) ص ٦٥ طبع الخانجى .

ثم رأيت أن أستعين بآراء من درسوا الغزالى ، وأن أستعرض أحكامهم على هذا التضارب ، فوجدتهم قد أدركوه وحاولوا الكشف عن سره ، فعقدت لمحاولاتهم هذه فصلا بعنوان « الغزالى كما فهمه الباحثون » .

ولما كنت قد ناقشت كل هذه الحلول بما يجعلها واهية ضعيفة فى نظرى ، وكنت قد اهتديت إلى حل جديد للمسألة فقد عقبت هذا الفصل بفصل آخر عنوانه « الغزالى كما فهمته » .

ولما كانت هذه الفصول تسير بالقارئ خطوة خطوة حتى تضع يده على المراجع التى تصور الحقيقة فى نظر الغزالى فقد جعلت الحديث عن هذه المراجع باباً واحداً تحت عنوان « مصادر الحقيقة عند الغزالى » .

ولما كانت هذه البحوث قد كشفت سر هذا التضارب فقد رأيت أن أصوب إلى الهدف وأن أشتغل بالمقصد — فأصور الحقيقة فى نظر الغزالى — بعد أن أخذت من الوسائل ما يكفى ، فعقدت لها فصلاً بعنوان « جوهر الحقيقة عند الغزالى » .

وفى هذا الفصل أردفت الرأى الحق فى نظر الغزالى بغيره من الآراء التى دعت إلى قولها مناسبة ، كلما أمكن ذلك .

وقبل ذلك رأيت أن أعالج الوسيلة التى رآها الغزالى طريقاً مأمونة للوصول إلى الحقيقة فعقدت لها فصلاً بعنوان « وسيلة الحقيقة عند الغزالى » .

ولما كان هذان الفصلان يعالجان الحقيقة من حيث وسيلتها ومن حيث جوهرها فقد جعلتهما باباً واحداً بعنوان « الحقيقة عند الغزالى » .

فتكون أبواب الكتاب وفصوله كما يلى :

الباب الأول : مصادر الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الأول : الحال السياسية والعلمية فى عصر الغزالى .

الفصل الثانى : حياة الغزالى .

الفصل الثالث : ملاحظات على كتب الغزالى .

الفصل الرابع : الغزالى كما فهمه الباحثون .

الفصل الخامس : الغزالى كما فهمته .

الباب الثانى : الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الأول : وسيلة الحقيقة عند الغزالى .

الفصل الثانى : جوهر الحقيقة عند الغزالى .

* * *

والتاريخ الفكرى مَرْكب صعب . وطريق وعرة ملوية : لأن المؤرخ لهذا الجانب — فوق أنه يعبر القرون ويثب وثبات فسيحات فى أحشاء الماضى السحيق — باحث عن فكرة . والأفكار والنوايا محلها القلوب . وإدراك ما فى القلوب يعز حتى فى حياة أربابها ؛ فما بالك وقد تطاول العهد . وبعدت الشقة ، واستطال الزمن ؟ !

قد يقال إن بين يديك رسوماً وآثاراً هى مؤلفات من تؤرخه ؛ أليس فيها ما يكشف لك الحجاب عن وجه الحقيقة ؟

حقًّا إن هذه المؤلفات هى كل ما يمكن التعويل عليه فى أمثال هذه المواطن ؛ ولذا فإن مؤلفات الغزالى هى مناط الأمل ومعقد الرجاء فى هذا البحث الذى أعالجه . ولكن الغزالى كان من المولعين بكثرة التأليف حتى زادت تآليفه على الثلاثمائة . وهذه الكثرة المفرطة تقتضى زماناً متطاولا ومجهوداً شاقًّا متواصلا . حتى يستطاع جمع هذا الشتات وترتيبه ، واستخراج منهج المؤلف وعقيدته من بين ثناياه .

ولأمر ما هاجم الغزالى ونقد ، واشتد فى هجومه ونقده . فخلق له منذ اللحظة الأولى خصوماً ألداء اشتدوا هم أيضاً فى هجومهم ونقدهم[١] له . كما خلق لنفسه أصدقاء أعجبتهم جرأته وشجاعته فشرعوا أقلامهم يذودون عنه ويدافعون[٢] . واشترك الفريقان فى حرب جدلية عنيفة دامت منذ عهد الغزالى حتى اليوم .

واقتضى الحال وجود فريق ثالث حملهم الإنصاف على أن يقولوا كلمة الحق[٣] إذ أن المسألة لم تصبح مسألة أشخاص بل أصبحت مسألة الحق ، والباطل .

---

(١) كما صنع أبو الوليد الطرشوشى ، والمازرى ، وابن رشد ، وابن القيم ، وكثيرون غيرهم .

(٢) كما صنع صاحب كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » وكما صنع السيوطى فى كتابه « تشييد الأركان من ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

(٣) كما صنع خوجه زاده فى « تهافت الفلاسفة » والطوسى فى « الذخيرة » .

فصار لزاماً على كل من يريد أن يعرف الغزالى أن يتنقل بين هذه الصفوف . وأن يصيخ بكلتا أذنيه إلى المؤيدين والمعارضين جميعاً . فإن الإنسان لا يُعرف معرفة حقيقية من أعدائه فقط ، ولا من أصدقائه فقط « فكلاهما مبالغ . بل من كليهما جميعا . ولقد أوصى الغزالى فى كتابه الإحياء من يريد أن يعرف نفسه أن يرهف أذنيه إلى أقوال الأصدقاء والأعداء فيه » . ولست أرى فارقاً بين من يريد أن يعرف نفسه ومن يريد أن يعرف نفس غيره .

ثم إن أمثال « الغزالى » من الشخصيات الفذة التى فسح لها الزمان مقعدا فى صدر الوجود ، يتخذها الضعفاء ردءاً يحتمون به ؛ فيضعون المؤلفات التى لو ظهرت بأسمائهم لأهملت وهان أمرها ، ويضيفونها إلى من ذاع صيتهم ونبه أمرهم ؛ فتسير مسير ذكرهم وتشتهر على حسابهم .

وأحياناً توضع المؤلفات وتضاف إلى أحد المشاهير الأعلام بقصد سيئ ، فتحشى بالأفكار التى لا تلتئم مع مجموعة أفكاره حتى تشوش على سمعته ، وتدع مجالا للطاعنين عليه والناثلين منه . وهذا من شأنه أن يوجه النظر وينبه الباحث إلى أن يتلقى المؤلفات بحيطة حذر ، وينظر إليها نظراً فيه شىء غير قليل من الشك والارتياب .

ولقد أقيم حول كتابين للغزالى — سأعرض لهما فيما بعد — ضجة وصياح فنفيا وأثبتا ، وأشيد بهما وأخملا . وهذه صعوبة لا يستهان بها فى طريق الباحث . فلا بد أن يضاعف الجهد ويواصل الدأب حتى يصل إلى رأى لعله ينير من حلك هذه الظلمة . ويكشف عن وجه الحق فى هذه المدلهمة .

ثم إن بعض مؤلفات « الغزالى » مفقود ، وبعضها مخطوط غير ميسور . وهذه المؤلفات لعل فيها من الأفكار ما كان يساعد الباحث على أن يرجح رأياً على رأى أو خطة على خطة ، فبدل أن يعمل الرأى والاستنباط المعرضين للخطأ والعثار ، ربما كان واجداً فيها ما يغنيه عن كل ذلك .

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أخطر الآراء التى سجلتها على الغزالى كالقول بقدم العالم، وأزليته ، وعدم علم الله بالجزئيات ، وعدم البعث الجثمانى ،

كلها استنباط لم يصرح الغزالى بواحد منها .

ثم إن عصر الغزالى كان عصر فتن واضطراب وزعازع وأعاصير . وهذه الملابسات غير العادية قد تحمل العلماء أحياناً على أن يترخصوا فى أمور — نزولا على حكم الضرورة — لعلهم لو كان العدل قائماً والنظام مستتبًّا والحال عادية لم يترخصوا فيها . ونحن . لعدم درايتنا بكل ما أحاط بهم من ملابسات فى تلك العصور الخوالى . نحاسبهم على كل ما صدر منهم . وربما كان لنا معهم موقف آخر لو أحطنا بملابساتهم .

ثم إن الغزالى نهل من كل ثقافة وروى من كل مشرع . والغزالى حر فى تفكيره . لا يرى فى الكثرة دليلا على صوابها . ولا فى القلة أمارة على خطئها ، يعرف الرجال بالحق . ولا يعرف الحق بالرجال . وقد ساعده عدم تعصبه على أن يأخذ الحق أنى وجده ولو من فم كافر . ولا عجب فمعدن الذهب الرغام — كما يقول — . ولهذا ظهر الغزالى وفيه شبه بكل أولئك الذين قرأ لهم . وأخذ عنهم : فكان كالبلورة انعكس عليها جملة ألوان . وهذا ما جعل الناس يتنازعونه ؛ فالمتصوفة يرونه صوفيا . والأشاعرة يرونه أشعريا . والفلاسفة يرونه فيلسوفاً .

وبحق يقول فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغى[1] : [ إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام . وإذا ذكر ابن عربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها . وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد : خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته .

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر . والغزالى الفقيه الحر . والغزالى المتكلم إمام السنة وحامى حماها . والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات

---

(١) فى مقدمة كتاب الأستاذ « فريد رفاعى » عن الغزالى .

الضمائر ومكنونات القلوب . والغزالى الفيلسوف . أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالى المربى . والغزالى الصوفى الزاهد .

وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره . رجل متعطش إلى معرفة كل شىء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة ] .

بل إن الغزالى نفسه يقول فى كتابه « المنقذ[1] » : [ اعلموا — أحسن الله إرشادكم ، وألان للحق قلوبكم — : أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب . على كثرة الفرق . وتباين الطرق ، بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون . وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل يزعم أنه الناجى . وكل حزب بما لديهم فرحون .

ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ . قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أتقحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور . لا خوض الجبان الحذور . وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة . وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محقق ومبطل . ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على بطانته . ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . ولا فلسفيًّا . إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته . ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته . ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش لدرك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى حتى انحطت عنى رابطة التقليد . وانكسرت علىَّ العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا ] .

ثم إن الغزالى عاب على علم الكلام وهو مؤلف فيه . وعاب على الفلسفة وهو مؤلف فيها .

---

(١) ص ٣ .

والغزالى شك وأمعن فى شكه ، وقد كان قبل الشك يستعمل موازين للحقيقة لم يرض عنها بعد الشك ، ومع ذلك ظل يعترف بمؤلفاته القديمة ، ويحيل عليها عند المناسبة . .

هذه الصعوبات — وسواها كثير — تجعل « الغزالى » لغزاً يعسر حله ولقد صدق « ديبور » حيث يقول :

[ إن أمثال الغزالى معضلة فى نظر الفلسفة ، فأشخاصهم حقائق روحية تحتاج إلى توضيح ] .

من هذا يظهر أن البحث عن الغزالى لن ينتج أكثر من ظنون؛ والظن يغنى فى مثل هذه المواطن إذ لا سبيل إلى اليقين .

ولن يضير الغزالى هذا الظن أو ذاك . فقد لقى ربه وتبوأ مكانه اللائق به ، وقطع كل صلاته بعالمنا هذا ، وما فيه من خير أو شر ، ولن ينفع الغزالى شهادتنا له بأنه فى درجة أنبياء بنى إسرائيل إن لم يكن عند الله كذلك . ولن يضيره أن يحكم عليه بأنه فيلسوف كان يضمر الفلسفة ، ويخفيها عن العامة ، الذين لا تقوى أفكارهم على هضمها ، إن كان عند الله على خلاف ذلك .

فلا ينبغى النزاع حول شخصه ، ولا شن الغارات بسببه . وليدرس من شاء أن يعرف ، والمخطئ والمصيب فيه — متى خلصت النيات — مأجور ، معذور أو مشكور .

ولقد عمدت إلى دراسته من كتبه جمعت منها ما شاء الله أن أجمع . لم يند عنى إلا مفقود ، أو مخطوط غير ميسور ، ولم يفتنى الانتفاع بمن كتبوا عنه ، بيد أن انتفاعى بهم محصور فى ثلاثة أمور :

الأول : أن يدلوا على كتاب لم أكن أعرفه أو على مكان كتاب أكون قد أخطأته .

الثانى : أن يدلوا على أهمية نص أكون قد مررت به مسرعاً فلم أتنبه لأهميته فأعاوده .

الثالث : معرفة تاريخ الغزالى الزمنى .

أما أن يبدوا رأياً ، لا أجد فى كلام الغزالى ما يؤيده ، فإنى لا آخذ به ، بل أرده وأناقشه .

---

( ١ ) نقلا عن كتاب التصوف الإسلامى العربى للطيباوى ص ٤٦ .

هذه نظرة فى الغزالى ، لا أزعم أنى قد فقتُ بها الأوائل . ولا ادعى انى بها لم أدع ما يقوله الأواخر . ولكنها محاولات ، خطتها يد لا عهد لها من قبل بحياة الكتابة والتأليف ، فقد تكون خطأ ، وقد تكون صواباً ، وقد تكون مزاجاً من كليهما .

ولكن يشهد الله أنى ما حملت على الغزالى — إن كنت قد حملت عليه — تعنتاً وبغضاً ، ولا دافعت عنه — إن كنت قد دافعت — تعصباً وحبًّا . ولكن الحق أردت والصواب توخيت ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

وفى هذه الخطة سرت ، وعلى حول الله وقوته اعتمدت ، إنه نعم المولى ونعم المصير .

سليمان دنيا


الطبعة الأولى { جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧ / مايو سنة ١٩٤٧

الطبعة الثانية { رجب سنة ١٣٨٥ / نوفمبر سنة ١٩٦٥

الطبعة الثالثة { محرم الحرام سنة ١٣٩١ / فبراير سنة ١٩٧١


obeikandl.com